

العلاقات العلمية بين مملكة سنار والحجاز (1505- 1821م) «عرض وتحليل»

جامعة أم القرى-مكة المكرمة - المملكة
العربية السعودية

أ.د. الريح حمد النيل أحمد الليث

مستخلص:

الحديث عن علاقات بين طرفين بمفهومها العام يقتضي قراءة متأنية للوقت الذي تمت فيه والذي غالباً ما يلقي بظلاله على تلك العلاقات في الفترة الزمنية المعنية، مما يستوجب النظر إليها بعين الماضي الحاضر تفادياً للوقوع في براثن منهج الإسقاط مما يجعل الحكم عليها مجانباً لمنهجية الموضوعية المنطقية في استقراء الحوادث وتحليلها ونقدها وفهمها فهما صحيحاً. من ثم وبعد اطلاعي على ما توفر لي من الأدبيات المتعلقة بالموضوع رأيت أن يكون منهجي في تناوله وعرضه اعتماد القراءة المتعمقة لتلك العلاقات وتحليلها تحليلًا يعكس قيمتها التاريخية وأهميتها ويظهر الهدف من دراستها واستخلاص نتائجها على الشعبين القاطنين غرب ساحل البحر الأحمر وشرق ساحله. قمت بتقسيم البحث إلى عدد من العناوين إضافة إلى التمهيد والخاتمة والمستخلص. تحدثت فيها باختصار عن نشأة المملكة وتوجهها مبتعداً عن التفاصيل الدقيقة المتعلقة بقيامها والجهود الرسمية والشعبية ودورها في قيام العلاقات وتطورها، وجهود علماء الحجاز والسودان في تنمية هذه العلاقات وتقويتها والمؤسسات التعليمية التي نشأت نتيجة لهذه العلاقات وكذلك العوامل التي ساهمت وساعدت في تقوية العلاقات بين الجانبين. اعتمدت في إعداد هذا البحث على عدد محدود لكنه متنوع من المصادر ذات الصلة المباشرة بالموضوع أهمها طبقات ود ضيف الله تحقيق البروفيسور يوسف فضل حسن، والعلاقات السودانية الحكية عبر التاريخ تأليف الأستاذ الدكتور سيد أحمد العقيد، والمؤلف الموسوم بعلاقات الفونج ببلاد العرب للدكتورة جونية عدلي غابوس ، وكذلك ما عثرت عليه من بعض المعلومات خاصة الموضوع في الشبكة العنكبوتية «الانترنت». وقد توصلت في خاتمة البحث الى نتائج أهمها: بذل ملوك مملكة سنار جهوداً حثيثة في دعم وتطور العلاقات العلمية الدينية والثقافية مع الحجاز. اتخذت العلاقات العلمية بين الحجاز والسودان طابعاً تبادلياً تمثل في العلماء والطلاب. لعبت المؤسسات التعليمية التي نشأت في السودان نتيجة لقدم العلماء من الحجاز أدواراً مهمة في التربية والتعليم والتثقيف الديني.

Scientific relations between the Kingdom of Sennar and Hijaz (15051821- AD)View and analyze

Pr.El raiah Hamadelnil Ahmed Allaith

Abstract

Talking about relations between two parties in their general concept requires a careful reading of the time in which they took place, which often casts a shadow over those relations in a specific time period, which necessitates looking at them with the eyes of the present past in order to avoid falling into the clutches of the projection approach, which makes judging them side by side with the objective and logical methodology in extrapolation Accidents, analysis, criticism and understanding correctly. Then, after examining what was available to me of the literature related to the subject, I thought that my approach in dealing with and presenting it should be to adopt an in-depth reading of those relationships and analyze them in an analysis that reflects their historical value and importance and shows the purpose of studying them and drawing conclusions on the two peoples living west of the Red Sea coast and east of its coast. I divided the research into a number of titles, in addition to the introduction, conclusion, and abstract. In it, I spoke briefly about the establishment of the Kingdom and its orientation away from the minute details related to its establishment, the official and popular efforts and its role in establishing and developing relations, and the efforts of Hejaz and Sudanese scholars in developing and strengthening these relations and the educational institutions that arose as a result of these relations, as well as the factors that contributed and helped in strengthening relations between the two sides. In the preparation of this research, I relied on a limited number but a variety of sources directly related to the subject, the most important of which are Tabaqat Wad Daifallah, investigated by Professor Youssef Fadl Hassan, and Sudanese-Mecca relations throughout history, authored by Professor Dr. As well as what I found of some information on the subject on the Internet. At the conclusion of the research, the most important results were :The kings of the Kingdom of Sennar made unremitting efforts to support and develop scientific, religious and cultural relations with the Hijaz. The scientific relations between the Hijaz and Sudan took on a reciprocal nature represented by scholars and students. The educational institutions that arose in Sudan as a result of the arrival of scholars from the Hijaz played important roles in education and religious education.

توطئة:

تعتبر مملكة سنار التي عرفت أيضاً بسلطنة الفونج والسلطنة الزرقاء أول كيان سياسي مستقل نشأ في السودان (سودان وادي النيل) بعد ظهور الإسلام وانتشار اللغة العربية، استطاع أن يجمع بين السياسة والدين والتعبير منذ نشأته عن أن الإسلام دين ودولة. برز ذلك نتيجة لازدياد أعداد العناصر العربية والمصاهرة بين العرب والنوبة بعد إتفاقية البقط عام 651م، فكان من الطبيعي أن يصاحب قيام المملكة سعى حكامها الدؤوب لتوطيد أواصر الصلات الثقافية والدينية بينها وبين الأقاليم والدول المجاورة شمالا وشرقا. حيث تكاد تجمع المصادر التاريخية على أن الحركة العلمية والثقافية التي صاحبت قيامها كان مصدرها مصر في الشمال والحجاز في الشرق فتم نتيجة لهذا أول لقاء ثقافي ديني إسلامي آسيوي- أفريقي في السودان.

لم يكن انفتاح المملكة العلمي الثقافي على الجوار العربي الإفريقي/الآسيوي محض صدفة بل المأمول المتوقع لما عرف عن ملوك مملكة سنار من حبهم العلم واعتنائهم به والحث والتشجيع على تعلمه، من خلال إكرام العلماء في الداخل والخارج وإنزالهم المنزلة اللائقة بهم وتوثيق الصلات وتقويتها بهم من جهة، وبعث الطلاب السودانيين لتلقي العلم خارج المملكة وإقامة أروقة العلم وإتاحة الفرصة لهم للاحتكاك بغيرهم من الطلاب والتعرف على ثقافتهم واكتساب المزيد من المعارف، وتشجيع العلماء من مصر والحجاز للمجيء للمملكة لنشر الدعوة والعلم في ربوع المملكة، من الجهة الأخرى.

نشأة المملكة وهويتها:

نشأت مملكة سنار الإسلامية (910- 1226هـ / 1505-1821م) نتيجة التحالف بين قبائل الفونج⁽¹⁾ بزعامة عمارة دونقس* زعيم الفونج⁽²⁾. ومؤسس مملكة وسنار وقبائل العبدلاب بزعامة عبدالله جماع* زعيم مشيخة العبدلاب⁽³⁾. ومنذ تأسيسها أخذت العناصر ذات التوجه الإسلامي في الظهور. ولخصوصية التكوين الإسلامي للمملكة اتجهت ملوكها إلى الارتباط الثقافي والروحي بالحجاز ممثلا في مكة المكرمة والمدينة المنورة، تأكيداً للرباط الثقافي والفكري ولرفع كفاءة أداؤها التعليمي ليتناغم مع ما هو مكنوز وموجود في هاتين العاصمتين الروحيتين المقدستين⁽⁴⁾ من قدسية واحترام يقتضيه الدين والتاريخ والواقع⁽⁵⁾. تبرز أهمية هذا التحالف في التمازج الذي تم بين العنصرين العربي والسوداني الإفريقي ومماثلهما الثقافي في بوتقة الحضارة الإسلامية وتقديمهما نموذجاً جديداً للتلاحم بين شعوب مختلفة في إطار الدين الإسلامي، وخير دليل على انصهار الشعبين وتكامل الثقافتين في اسم مؤسس دولة الفونج: فعمارة رمز العروبة ودونقس رمز الإفريقية⁽⁶⁾.

عليه لم يكن من المفاجئ أو المستغرب توجه السلطنة الدينية المبكر نحو الحجاز بعد أعوام الحزن الثلاثة عشر التي مرت على المسلمين بعد زوال دولتهم في الأندلس عام 1492م*، فعد قيامها تعويضا ماديا ومعنويا مهما عن ضياع الأندلس، وتعبيراً قوياً عن مقدرة المسلمين على التعويض والإبداع، فكان من الطبيعي أن يرنوا سلاطينها إلى شرف الانتماء إلى آل البيت، كما أن الحج كان أملاً يراود الملوك والعلماء والتجار⁽⁷⁾. يظهر ذلك في اعتبار قيام مملكة سنار الإسلامية على أنقاض مملكة سوبا المسيحية* نقطة تحول في تاريخ علاقة السودان بجواره العربي الإسلامي آسيويا وأفريقيا، وفاصلة حضارية مهمة بدلالاتها الفكرية،

والثقافية في اتجاه تكوين المجتمع السوداني الجديد، حيث شجع سلاطين الفونج توافد العلماء، والمتصوفة الى المملكة، وأجزلوا لهم العطاء والهبات. لذا كان من الطبيعي في المائة عام من (1650 - 1750م) أن يتابع المجتمع السناري ترقياته الروحية في إطار المرجعية الإسلامية ويصبح التوحيد هو مرجعية دولة الفونج نتيجة لتراكمات تاريخية أدت إلى تقبل أهل السودان للثقافة الإسلامية، نتيجة للتواصل الاجتماعي والتجاري مع الحجاز وطريق الحج.⁽⁸⁾

عطفًا على ما ذكرنا نقول أن مملكة سنار ولدت سودانية بشهادة ميلاد إسلامية واقفة على قدميها فخطت أولى خطوات انتمائها الإسلامي في اتجاه جوارها الإسلامي شمالا وشرقا نحو الخارج، بكل وعي وإدراك لحساسية المرحلة التي مر ويمر بها المسلمون منذ فقدهم الأندلس، مدركة أهمية ما تذر به بلاد المسلمين من علماء أكفاء في ميادين العلوم المختلفة بخاصة الدينية، يمكنهم الاسهام في التأسيس لمجتمع سوداني إسلامي النزعة والتوجه اذا ما أتاحت لهم الفرصة وقد كان، فأحدثت بذلك نقلة علمية غير مسبوقة باستقدامها لعلماء بلاد الحجاز من مكة المكرمة والمدينة المنورة

من ثم أخذت الحياة الاجتماعية تتطور باتباع أساليب وطرق خاصة ومميزة، برزت في تشكل بنية ثقافية وفكرية أبرزت سمات معينة، جاءت نتاج تفاعل وتأثير متبادل تلاقح الموروث المحلي مع الوافد فكان نتج ذلك بروز الخصائص المميزة التي عرف بها المجتمع السوداني في تلك الفترة.⁽⁹⁾

عوامل تقوية أواصر العلاقات:

قدوم التجار العرب من مصر:

ازدادت وتيرة اتصال السودان بالحجاز منذ القرن الثامن الميلادي حيث اتصل العرب بالسودان عن طريق البحر الأحمر ومصر ومكة، فقد جاء العرب إلى السودان تجاراً واجتازوا من مصر بلاد السودان حاجين أو مقيمين.⁽¹⁰⁾ قرب موانئ البحر الأحمر من مكة المكرمة:

ولا يخفى دور موانئ ساحلي البحر الأحمر الغربي والشرقي في تقوية أواصر العلاقات بتشكيلها نقاط ارتكاز بمثابة موانئ تمتاز بقربها الجغرافي من مكة المكرمة مثل ميناء الشعيبية.⁽¹¹⁾

ميناء سواكن*:

اكتسبت جزيرة سواكن أهمية كبيرة خلال العصر السناري باعتبارها أهم موانئ الساحل الغربي للبحر الأحمر ولعبت دورا مهما في رحلة الحجيج القادمين السودان والسودان الغربي، للعلاقات الضاربة في القدم بين سكانها وسكان جزيرة العرب ، فكانت مقصدا للهجرات العربية منذ ما قبل ظهور الإسلام في مقدمتها هجرات الجماعات والبطون العربية القادمة من بلاد حضرموت* باليمن، وهجرات الإشراف القادمين من مكرمة المكرمة فتوثقت صلتهم بها حتى صاروا حكاما لها مما فتح الباب أمام هجرات المزيد من أشراف مكة إلى سواكن فانعكس أثرها على بيوت ومساكن سكان سواكن التي تأثرت بقوة بعمارة بلاد الحجاز.⁽¹²⁾

جهود بناء العلاقات وتنميتها:

تمثلت البداية الفعلية لقيام علاقات علمية متبادلة بين مملكة سنار والبلاد الإسلامية المجاورة على رأسها الحجاز في تشجيع سلاطين الفونج وملوك العبدلاب العلماء والفقهاء ورجال الطرق الصوفية من مصر والحجاز والمغرب على القدوم إلى السودان ليسهموا في نشر العقيدة الإسلامية وتعميق مفاهيمها على أسس علمية سليمة بين مواطنيهم.⁽¹³⁾

بيد أنه لم يمحض القليل من الوقت حتى تحول التشجيع إلى قوة دافعة لتوثيق العلاقات العلمية وازدهارها إبان حكم الشيخ عجيب ابن الشيخ عبد الله جماع المعروف بالشيخ عجيب المانجلك* أثر توليته الحكم بعد والده زهاء سبعة عشر عاما (1563-1610م)، نتيجة دعمه الكبير الحياة الدينية في المملكة وقيامه بتشييد المساجد والخلاوي في أنحاء السلطنة المختلفة، مكللا هذا الدعم بسعيه الحثيث لتقوية العلاقات العلمية بين المملكة والحجاز وتنميتها بتشييد رواق في المدينة المنورة ليكون مأوى للسودانيين القادمين إلى المدينة المنورة⁽¹⁴⁾.

كذلك قام السلطان بادي الأحمر* بإنشاء وقف في المدينة المنورة لاستقبال القادمين من مملكة الفونج لإقامتهم به مجانا به أثناء زيارتهم المدينة المنورة والحرم المدني.⁽¹⁵⁾، ولا يزال جزء من أوقاف السودان هناك⁽¹⁶⁾. يعكس ما قام به الشيخ عجيب والسلطان بادي المنزلة الرفيعة التي بلغها العلم في مملكة سنار، واهتمام ملوك المملكة الشخصي والرسمي برعاياهم الذين غادروا للحج والعمرة والزياره أو مبتعثين طلبا للعلم والمعرفة، وهو ما يمكن اعتباره مصلح اليوم ومفهوم العصر ملحقة ثقافية أو دارا للجالية السودانية ببلاد المهجر، تأكيدا لما وصلت إليه عقلية النخبة الحاكمة من فهم متقدم عن زمانه لكيفية إقامة العلاقات الخارجية من أجل تقوية اللحمة الإسلامية بين المسلمين، من خلال العلاقات العلمية والصلات الثقافية بين الشعوب. نستخلص مما ذكرناه أنفا أن تشجيع علماء الحجاز على المجيء إلى السودان لم يكن وقفا على النخبة الحاكمة بل شاركهم في ذلك حجاج السودان الذين كانوا يشجعون علماء الحجاز على الرحلة إلى بلاد الفونج، إضافة إلى كثير من السودانيين الذين كانوا يتلقون العلم في مكة المكرمة والمدينة المنورة.⁽¹⁷⁾

الهجرة العلمية إلى الحجاز:

لعل أول ما يستوقف المطالع على مسيرة العلاقات العلمية بين مملكة سنار والحجاز بواعث الهجرة العلمية ومقاصدها، وسبلها ووسائلها، وأهدافها وغاياتها التي غلب عليها الطابع الفردي والجماعي الذي جسد حب أهل السودان وتعلق أفئدتهم بالأراضي المقدسة منذ أقدم العصور، وسعيهم الدؤوب رغم مشقة الأسفار من طول الرحلة وعورة الطرق وانعدام الأمن، إلى الوصول إليها والمجاورة بها أو تلقي العلم والعودة لنشره بين أهل السودان. وبما أن نطاق البحث لا يتسع لذكر جميع من هاجر إلى الحجاز أو الحرمين الشريفين للحج أو طلبا للعلم، سنكتفي بذكر نماذج نستشف منها المكانة السامية التي بلغها علماء السودان في الحجاز حتى صاروا مضرب المثل في العلم والتفقه في الدين، فوجدوا الإشادة من علماء الحجاز.

العجمي ود حسونة:

وصفته المصادر أنه من أوائل السودانيين الذين هاجروا إلى الحجاز (مكة والمدينة)، وأنه اختار الجوار في مكة المكرمة وسكن في رباط العباس وما لبث أن انقطع للذكر والعبادة وظل بمكة إلى أن توفي بها ولم يتزوج، وأخوه حسن ود حسونة الذي قضى في الحجاز ومصر والشام نحو اثنتي عشرة سنة، معه أبو حميدة وأحمد ود الدنقلاوي.⁽¹⁸⁾

الشيخ عبد الله دفع الله العركي*⁽¹⁹⁾

حج أربعاً وعشرين حجة ذهاباً وإياباً جاور في اثنتي عشرة منها في الحرمين الشريفين، وإماما فيها يدرس مذهب الإمامين مالك والشافعي، وشيخا للطريقة القادرية بها إلى عودته إلى بلاده والعمل في إرشاد الناس إلى أمور دينهم.⁽²⁰⁾

3- الشيخ حمد بن محمد المجذوب :

رحل إلى لحجاز طلباً للعلم والانتساب لطريق من الطرق الصوفية، وأخذ الطريقة الشاذلية عن الفقيه «علي الداوي» المغربي، وصار من مريديها في الحجاز، وأسس بعد عودته من مكة فرعاً للشاذلية في الدامر عرفت بالمجاذيب.⁽²¹⁾

الشيخ محمد بن الشيخ محمود العركي:

سافر إلى مكة وتلقى العلم فيها وأخذ التصوف عن الشيخ محمد البكري

الشيخ جنيد ولد طه:

أشاد به علماء الحرمين ووصفوه بأن الله أعطاه قبولاً تاماً عند الملوك والسلطين نتيجة للمرتبة العلمية العالية التي بلغها.

الشيخ عبد اللطيف بن الخطيب:

برع في مجال التدريس فمدحه أحد علماء الحجاز بوصفه بعالم الديار السنارية وعلامة الأقطار الإسلامية.

جلب الكتب العربية الدينية والثقافية:

وإلى جانب اهتمامهم بتحصيل العلوم بالحجاز اهتم السودانيون بجمع وجلب العديد من الكتب العربية الدينية والثقافية الغريبة والنادرة، فيذكر أن الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ صالح بان النقى ملأ من الكتب التي طلبها من الحجاز ومصر ست خزانات. وكذلك الفقيه حامد اللين ، وعمار بن عبد الحفيظ الذي اشتهر بكثرة رحلاته إلى الحجاز ويقال أنه أحضر معه جملين أو ثلاثة من الكتب.⁽²²⁾

ثمة عوامل إذنت إلى توطيد ودعم أواصر الصلة بين الحجاز والسودان في سلطنة الفونج تميزت برحيل علماء من السودان للحج والمجاورة والعلم ثم العودة لنشر الثقافة الإسلامية بين السودانيين، فقد كانوا فور عودتهم يبادرون بتأسيس الخلاوي والمساجد يعلمون فيها الناس القرآن والدين ونشر مبادئ الشريعة الإسلامية.⁽²³⁾

وفادة علماء الحجاز إلى السودان:

شهدت مملكة سنار منذ قيامها وفود عدد من شيوخ الحجاز إلى السودان لنشر الأفكار والمبادئ الدينية الصحيحة فيه، نذكر منهم:

أحمد البيلي:

ولد بمكة المكرمة ودرس بالحرم الملكي الشريف، وهاجر إلى السودان عن طريق جدة، وعبر البحر الأحمر عن طريق سواكن ووصل مدينة «شندي» حوالي (932هـ/1526م) ومكث بها، ومنها سار إلى مروى واستقر به المقام في «تنقاس» (وتزوج فيها ونال تكريماً من الملوك).⁽²⁴⁾

الشيخ عيسى بن بشارة الأنصاري :

قدم من المدينة المنورة، وقام بتأسيس مدرسة للتعليم بقرية «كترانج» ، فأقبل الناس عليه وعلى أبنائه وأحفاده يتلقون عليهم العلم، علماً أنه كان بارعاً في المذهبين المالكي والشافعي وناطقة في العلوم المعقولة والمنقولة.⁽²⁵⁾

ومن أشهر العلماء الذين وفدوا من الحجاز إلى السودان في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي بعد أن أخذت المساجد في الظهور بصورة متسارعة مع انتشار علوم القرآن من فقه وأصول دين ولغة عربية: **الشيخ تاج الدين البهاري:**

أحد خلفاء الشيخ عبد القادر الجيلاني وذلك تلبية لدعوة التاجر السوداني داود بن عبد الجليل الذي كان مشهوراً بالثراء،⁽²⁶⁾ بعد حجه إلى بيت الله الحرام ومكوته مجاوراً فيها جرياً على عادة العلماء والفقهاء والمتصوفة في تلك الأزمان.⁽²⁷⁾

ورغم الاختلاف في التاريخ الذي قدم فيه إلى السودان غير أن المصادر تجمع على أنه مكث بالجزيرة حوالي سبع سنوات قام خلالها بإدخال الطريقة القادرية الجيلانية، فسلك عليه العديد من المريدين الطريق وقاموا بعد عودة شيخهم إلى الحجاز بتسليك غيرهم سلوك الطريقة⁽²⁸⁾، واشتهر على يديه مشايخ كثر أشهرهم الشيخ عجيب الكبير الذي يعود إليه الفضل في وضع أسس الحياة الإسلامية الثقافية في السودان وأخذها الطابع العلمي المنظم.⁽²⁹⁾

الشريف محمد الهندي والشيخ دشين»

قدم من مكة المكرمة، ولقب بالشريف نسبة لانتمائه إلى الأشراف في مكة، والشيخ دشين الذي أنجب ذرية من الصالحين منهم الفقيه مدني الذي سميت مدينة (ود مدني) على اسم حفيده.⁽³⁰⁾

أثر علماء الحجاز في السودان:

تجدر الإشارة في هذا المجال إلى أن أثر العلماء والشيوخ الذين حضروا من الحجاز إلى السودان في عهد الفونج لم ينحصر في إنشاء الزوايا بل تعداه إلى العمل على نشر الإسلام في مناطق أخرى من السودان حيث مضى بعضهم صوب الغرب حتى بلغ دارفور.⁽³¹⁾ وأن الأثر الصوفي الحجازي في المراحل المبكرة من نشأة المملكة كان أقوى من أثر الطرق الصوفية الوافدة من شمال وغرب أفريقية، وربما عاد ذلك إلى القيمة الروحية للحجاز، وأثرها الوجداني العميق في نفوس السودانيين.⁽³²⁾

ما يمكننا ملاحظته بوجه عام مما ذكرنا أن مكة المكرمة أسهمت اسهاماً فاعلاً في دعم البنية العلمية السودانية ابان عهد المملكة السنارية دينياً وثقافياً عبر الهجرة إليها طلباً للعلم أو استزادة منه وبراعة فيه وعملًا به وتعليماً ومجاورة أو من وفد منها يعلم أهل السودان أمور دينهم ويفقههم في الدين، ما يؤكد على عمق الصلات الوثيقة بين السودان الحجاز وعلى الأثر المكي الفاعل في تكوين الوجدان السوداني وتشكيله تربوياً وعلمياً وثقافياً ومعرفياً وروحياً وتوجهاً هياً لذلك ومهد الطريق لنجاحه حب أهل السودان للعلم والمعرفة والترقي فيهما. وهو ما يفسر توجه المملكة الروحية المبكر نحو الحجاز وأدى الارتباط الديني الثقافي به والذي توج بقيام الشيخ عجيب المانجلك لما حج إلى بيت الله الحرام وأقامته زمناً طويلاً فيه، ببناء منازل بمكة والمدينة سميت بالرواق السنارية، مما أدى إلى تزايد الوجود السوداني بمكة، وتشجيع الكثيرين منهم على المجاورة والاختلاط بأهل مكة سنوات عدداً وتعميق الروابط بين أهل مكة والسودان.⁽³³⁾

يروى في هذا السياق أن الشيخ عبد الله بن دفع الله العركي قد استرعى انتباه العلماء في مكة بلباقته وحسن تدريسه وسعة علمه فطلبوا إليه أن يستقر بمكة للتدريس غير أنه لم يقبل ذلك لأن عليه واجباً علمياً لأهل بلاده وأن الأولى أن يرجع إليهم.⁽³⁴⁾

تبرز حالة التأثير والتأثر المكي السوداني واضحة جلية في واحد من أشهر العلماء السودانيين الذين كان لهم أثر في مكة، ولمكة أثر مباشر عليهم تأهيلاً وإعداداً روحياً وعلمياً وتربوياً وهو الشيخ محمد بن عدلان الشايقي الحوشابي الذي حج إلى بيت الله الحرام وجاور به، وتلقى علم الكلام والمنطق والأصول والعربية على عالم المدينة المنورة الفقيه عبد الله المغربي الذي كان شيخاً لعلي الصعيدي العدوي وكان عالماً من علماء المذهب المالكي في القرن الثاني عشر الهجري.⁽³⁵⁾

مما لا شك فيه ومن خلال الإشارات السابقة يتضح أثر مكة في صياغة وإعداد وتأهيل القيادات الفكرية والعلمية والتربوية في السودان⁽³⁶⁾، يظهر ذلك في أن السودانيين قبل القرن الثامن عشر كانوا يسرون في التدريس والتلقين والتلقي المعرفي وفق المنهج المشرقي المكي أكثر من تأثيرهم بمنهج المغرب، لا سيما فيما يتصل بدراسة القرآن وعلومه وقلة عنايتهم بالشعر والأدب. الأمر الذي يوحى بقوة الأثر المكي وطغيانه على المؤثرات الثقافية والعلمية الأخرى.

يظل أثر مكة بادياً فيمن دخلها زائراً أو بقي بها مجاوراً يتفياً ظلال بركتها وعميم خيرها ونفعها، منهم الشيخ عمارة بن شافعي الذي قرأ القرآن على الفقيه عبد الدافع، وتعلم علوم التجويد بمكة وأضحى بعد رجوعه إلى السودان واحداً من شيوخ السودان المعدودين في مجال القرآن والفقه وعلوم العربية والتوحيد. شيخاً من مشايخ السودان المشهورين الذين أثروا السودان عطاء ومعرفة وتربية وإعداداً وتأهيلاً⁽³⁷⁾

من الملاحظ أن المجاورة وتوثيق المعرفة بمكة كانت أمراً متواتراً لدى علماء السودان، فلا يشعر العالم باستيفاء المعرفة وتوثيق ما لديه من علم وعمل إلا إذا جاور بمكة وتلقى من علمائها الذين كانوا يفدون إليها من مشارق الأرض ومغاربها. وبالتالي كانت مكة نقطة التقاء ومحور ارتكاز معرفي وروحي يشعر المرء بقدر من النقص في مخزونه المعرفي إن لم يزرها ويجاور.

لعل من أولئك المشتهرين بالحكمة السائرة والموعظة الحسنة والنبوءة الصادقة الشيخ فرح ودكتوك الذي حج إلى بيت الله الحرام وجاور وكان سبباً في إسلام عدد من النصارى على يديه، مما يعتبر إشراقاً مكيّاً على روحه وسلوكه وتوجهه.⁽³⁸⁾

المؤسسات التعليمية:

من الآثار العلمية التي وفدت إلى السودان من الحجاز في وقت مبكر كلمة مسيد وهو لفظ يطلق في السودان ويقصد به المكان الذي يجمع مدرسة القرآن (الخلوة) والمصلى والسكن.⁽³⁹⁾

من الآثار المكية أيضاً انتشار المدارس التي تلقى مؤسسوها العلم في الحجاز مثل مدرسة الشيخ محمد ودعدلان الحوشاني في تنقاسي التي اعتنت بصفة خاصة بالتصوف وكان لمؤسسها شروحات انتفع بها المبتدئ والمتنهي، ومن تعاليمه إن من لم يعرف الله بالدليل والبرهان فليس بمؤمن.

ومدرسة البديري الدهمشي في بربر التي جمعت بين ثقافة الحجاز ومصر. وسرت سمعة مدارس الدامر عامة إلى الحجاز واليمن مع الحجيج وزارها نفر من الشيوخ الأفارقة من نيجيريا وتبكتو مقيمين وعابرين في طريقهم للأراضي المقدسة، وكان التعليم فيها يبدأ بالقرآن حفظاً وتجويداً، ثم الفقه والعلوم الإسلامية على المذهب المالكي، وعلم التجويد والعقائد وعلوم العربية كالنحو والبلاغة، ويلتحق الطالب الذي

يتخطى هذه المراحل وله الرغبة في الدراسات العليا بالقسم النظري لدراسة كتب الإحياء للغزالي والسكندري وغيرها، أو القسم العملي ويتمثل في الصوم والصلاة وقيام الليل. علما أن سنار وما جاورها كانت منطقة غنية بنشاط ديني وعلمي واسع ساهم فيه فقهاؤها عن طريق مراكزهم العلمية (خلاوي ومساجد) بالإضافة إلى أنهم طرّقوا مجالات عديدة أصقلت تجاربهم منها رحلة العلماء إلى الحجاز.⁽⁴⁰⁾ وامتد أثر العلاقات بين المملكة والحجاز إلى العمل على نشر الدعوة والعقيدة الإسلامية بالطرق الصحيحة عن طريق روادها الذين كانوا من عدد من البلاد على رأسها الحجاز إلى جانب الدعاة الوطنيين الذين كان لهم فضل كبير في هذا الصدد. والواقع أن أثر الحجاز كان كبيراً فأكثر الذين هاجروا إليه سواء لأداء الفريضة أو التجارة، درسوا هناك على علماء المالكية ونقلوا تعاليم هذا المذهب وكتبه المتعددة.⁽⁴¹⁾

الخاتمة:

مما لا شك فيه إن اهتمام ملوك مملكة سنار بتنمية علاقتها العلمية وتطويرها مع الحجاز مثل حجر الزاوية في علاقات المملكة الخارجية نظرا لما تمتع به الحجاز من مكانة روحية سامية ومكانة علمية سامقة بين أهل السودان. لذلك لم يكن مفاجئا أو مستغربا أن تتجه أنظار سلاطين مملكة سنار إلى الحجاز (الحرم المكي والحرم المدني)، توثيقا لعرى التواصل بين الجانبين وتقوية للصلات العلمية بينهما. ففوة الجذب الروحي الكامنة في مكة المنورة حيث الكعبة البيت الحرام والمدينة المنورة قبر رسول الله ﷺ ومسجده، جعلت زيارتهما والمجاورة بهما حلما يراود ملوك مملكة سنار وعلمائها منذ الأيام الأولى لظهورها. لا شك كذلك أن الاتصال المباشر عبر البحر الأحمر ساعد على ترجمة الشعور بالانتماء الديني للحجاز إلى واقع تمثل في قيام علاقات علمية ثقافية قوية بين السودان والحجاز منذ وقت مبكر، من خلال أذرع وروافد عمادها بعض طلاب العلم السودانيين الذين تلقوا العلم على علماء الحجاز في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وكذلك عن طريق علماء الحجاز الذين وفدوا إلى السودان وأثروا الحياة العامة بعلومهم وأفكارهم التي أحدثت تحولا كبيرا في بنية المجتمع السوداني الدينية والثقافية والعلمية، محدثا نقلة علمية وثقافية نوعية تصدرتها جهود عدد معتبر من العلماء من الجانبين وتركت أثرا واضحا على العلاقات العلمية بين البلدين كان ثمرته نشر الوعي الديني في مختلف مناطق المملكة مظهرا مدى قدرة العقلية السودانية الرسمية والشعبية على استيعاب المفاهيم العلمية الوافدة وتسخيرها لنشر العلم والمعرفة بتشجيع العلماء على القدوم والإقامة في السودان وإكرامهم، وتمكينهم من الاختلاط بالخاصة والعامة ونشر أفكارهم ومبادئهم الدينية دون رقابة أو قيود.

النتائج:

- بذل ملوك مملكة سنار جهودا حثيثة في دعم وتطور العلاقات العلمية الدينية والثقافية مع الحجاز.
- اتخذت العلاقات العلمية بين الحجاز والسودان طابعا تبادليا تمثل في العلماء والطلاب.
- ترك السودانيون الذين هاجروا إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة للزيارة والحج ثم المجاورة والتدريس أثرا طيبا وجد الاشادة من أهل الحجاز وعلمائها.
- ترك العلماء الذين وفدوا من الحجاز بصمات واضحة في المجتمع السوداني من خلال نشر المبادئ والأفكار الدينية الصحيحة.

- لعبت المؤسسات التعليمية التي نشأت في السودان نتيجة لقدم العلماء من الحجاز أدواراً مهمة في التربية والتعليم والتثقيف الديني.

التوصيات:

- تشجيع البحث التاريخي في العلاقات بين الحجاز والسودان وتطوير آلياته تعزيزاً للعلاقات الأزلية بين الحجاز والسودان في مختلف الأوجه والفترات الزمنية.
- إنشاء مراكز بحث علمي تعنى بدراسة التراث والتاريخ الإنساني المشترك بين السودان والمملكة العربية السعودية.

الهوامش:

- (1) تمكن الفونج سنة 1504 من بسط نفوذهم على العبدلاب وعلى رعاياهم من العرب والمجموعات المستعربة وغيرهم من الوطنيين حتى الشلال الثالث، كما شملت مملكة الفونج، أو السلطنة الزرقاء، أجزاء كبيرة من كردفان وبلاد البجة. يوسف فضل حسن: «الهجرات البشرية وأثرها في نشر الإسلام في السودان» التاريخ. موقع الدكتور محمد موسى الشريف. 2015/12/1م.
- (2) لا توجد اليوم أمام المؤرخين سوى روايات ثلاثة متضاربة وإشارات غير قاطعة في دلالاتها عن حقيقة أصل الفونج والذي تمثل في الأصل الأموي (العربي) والأصل البرناوي والأصل الشلكاوي . ولمزيد عن التفاصيل عن أصل الفونج راجع: الشيخ الأمين محمد عوض الله. «إسهامات المؤرخ مكي شبكية في كتابة تاريخ مملكة الفونج الإسلامية» ورشة عمل: إسهامات علماء السودان في كتابة التاريخ، 25/أكتوبر 2013/.
- (3) بابتكر فضل المولى حسين :مظاهر الحضارة في دولة الفونج الإسلامية، منشورات الخرطوم عاصمة الثقافة العربية 2005، الخرطوم، 2004، صفحة 49.
- (4) أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي. مصر - القاهرة. مكتبة النهضة المصرية. ط5. 1990م. ج6. ص 32. ؛ وسيد أحمد العقيد: العلاقات السودانية المكية عبر التاريخ الدار العربية للنشر والتوزيع، 2006م، ص 86.
- (5) سيد أحمد العقيد : العلاقات السودانية المكية. ص 86.
- (6) يوسف فضل حسن: الهجرات البشرية. (*)
- (7) سيد أحمد العقيد: العلاقات السودانية المكية، ص 86-87. (*)
- (8) حسن مكي محمد احمد: «استعراض كتاب»The Heroic Age in Sinnar, by Jayspaulding. دراسات أفريقية، ص247/248.
- (9) تاج السر عثمان الحاج: لمحات من تاريخ سلطنة الفونج الاجتماعي، مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية، جامعة أم درمان الأهلية، الخرطوم، 2005م، صفحة 2.
- (10) عبد العزيز أمين عبد المجيد: التربية في السودان والأسس الاجتماعية والنفسية. مصر - القاهرة. المطبعة الأميرية 1949م. ج 1، ص 3.؛ سيد أحمد العقيد: العلاقات السودانية المكية، ص 32 .
- (11) يقع شاطئ الشعبية على بعد أكثر من (90 كلم) جنوب مكة وكان يعرف ببحر مكة وكانت الميناء الرئيس للجزيرة العربية قبل العصر الإسلامي وفي عام 26هـ طلب أهل مكة من الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه تحويل الساحل من الشعبية إلى مرافئ جدة لقربها من مكة فتم ذلك في منتصف العقد الثالث من القرن الأول الهجري. (*) جزيرة سودانية تطل على البحر الاحمر تبلغ مساحتها عشرين كيلومترا مربعا حظيت بإهتمام الحضارات الكبرى في

المنطقة وتقع جزيرة سواكن علي الساحل الغربي للبحر الاحمر شرقي السودان وهي جزيرة مرجانية إنهارت منازلها وعمرائها وتحولت إلي أطلال وحجارة تحكي ثراء تاريخ غابر. اما سواكن المدينة فمنطقة واسعة يدخلها لسان بحري يجعل منها ميناءً طبيًا.

(12) (*) أصل اسم «حزرموت» غير معروف تمامًا، وهناك العديد من الفرضيات المتنافسة حول معناه. من أكثر الأصول الشعبية شيوعًا هو أن اسم المنطقة يعني «قد حان الموت»، من العربية (13) حسين مجدي صالح: سواكن ودورها في رحلة الحج إلى بلاد الحجاز حتى العصر الحديث. جامعة القاهرة: معهد البحوث والدراسات الأفريقية.

(14) (*) الشيخ عجيب المانجلك هو أحد شيوخ العبدلاب بالسودان حكم منطقة قرى من عام 910-1019م ينتمي إلى بيت كريم من أشرف مكة يعرف ببيت بركات.

(15) جوليت غاييوس : علاقات دولة الفرنج ببلاد العرب. الدار العربية للنشر والتوزيع، ط1 ، 2009، ص 138.

(16) الدولة العثمانية : مصر في العهد العثماني: المؤسسات التعليمية 4.

(17) الخضر هارون : الثقافة العربية في السودان. محاضرة . واشنطن : مركز الحوار العربي - 28 أغسطس / آب 2005م. عن الثقافة العربية في السودان. www.freearabvoice.org/?page_id=644.

(81) (*) هو الملك بادى الاحمر بن أونس 1689-1715م هو أول ملك اوقف خارج مملكة سنار ، وقامت ثورة ضده تحالف فيها الفونج والقواسمة وعزل ونفى لدنقلا .

(19) سلطنة سنار - المعرفة-الانترنت.

(20) 1711- سلطنة الفونج الإسلامية في سنار. موقع منارة الإسلام. Islambeacon.com.

(21) الطبقات تحقيق يوسف فضل ص 88 ، الذيل والتكملة ص21.

(22) لما طال مكثه بالحجاز سافر إليه أخوه الشيخ أبو إدريس ومعه الحاج سلامة الضيائي فحجا حجة الفريضة وأحضره معهم. انظر: طبقات ود ضيف الله.

(23) الشيخ عبد الله بن دفع الله بن احمد مقبل الذي ينتسب إلى السيد إبراهيم بن الإمام موسى الكاظم. مؤسس ورائد الطريقة القادرية العركية في السودان . انظر: عابدة سيد احمد: «مشايخ العركيين في عهد سلطنة الفونج». موسوعة التوثيق الشامل.

(24) سيد أحمد العقيد : العلاقات. ص 97 .

(25) جوليت غاييوس : علاقات دولة الفونج ، ص 133.

(26) الموسوعة الشاملة - مجلة جامعة أم القرى .

(27) يحيى محمد إبراهيم: تاريخ التعليم الديني في السودان . بيروت ، 1987، ص46.

(28) تقع قرية كترانج على الضفة اليمنى للنيل الأزرق على بعد 36 ميلاً جنوب الخرطوم. عز الدين الامين: قرية كترانج وأثرها العلمي في السودان (مجلة الدراسات السودانية)، مجلد 2، عدد مارس 1970، ص48-ص70.

- (30) سيد أحمد العقيد : العلاقات. ص 90-91 .
- (31) الطبقات: ص 44، 45، الذيل والتكملة ص 52
- (32) يحي محمد إبراهيم: تاريخ التعليم ، ص 44
- (33) حسن مكي محمد أحمد: الثقافة السنارية المغزي و المضمون إصداره رقم (5) جامعة أفريقيا العالمية، الخرطوم، (د.ت) ص، 47
- (34) عمر سالم بابكور: الدعوة في السودان وتأثيرها بالدعوة السلفية «دراسة تاريخية وثائقية» مجلة جامعة أم القرى.
- (35) جريدة الدستور : المجتمع السوداني تشكله صبغة صوفية خاصة تعمق وجدانه. القاهرة. الاثنين 2016/6/13م www.dostor.org/1092542 .
- (36) سيد أحمد العقيد : العلاقات. ص 96 .
- (37) عبد العزيز أمين عبد المجيد : التربية في السودان. ص 220 – 221، و سيد أحمد العقيد: العلاقات ص 97 .
- (38) سيد أحمد العقيد : العلاقات. ص 98 .
- (39) سيد أحمد العقيد: العلاقات، ص 99 .
- (40) نفسه: ص 99 – 100 .
- (41) جوليت عدلي غابوس: علاقات دولة الفرنج، ص 138 ؛ سيد أحمد العقيد: العلاقات، ص 100
- (42) جوليت عدلي: علاقات دولة الفونج، ص 113.
- (43) جوليت عدلي، علاقات دولة الفونج، 130.
- (44) نفسه، ص 139.

المصادر والمراجع:

- (1) أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي. مصر - القاهرة. مكتبة النهضة المصرية. الطبعة الخامسة. 1990م.
- (2) بابكر فضل المولى حسين : مظاهر الحضارة في دولة الفونج الإسلامية، منشورات الخرطوم عاصمة الثقافة العربية 2005، الخرطوم، 2004م.
- (3) تاج السر عثمان الحاج: لمحات من تاريخ سلطنة الفونج الاجتماعي، مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية، جامعة أم درمان الأهلية، الخرطوم، 2005م.
- (4) جريدة الدستور : المجتمع السوداني تشكله صبغة صوفية خاصة تعمق وجدانه. القاهرة. الاثنين 2016/6/13م www.dostor.org/1092542.
- (5) جوليت عدلي غابويوس : علاقات دولة الفرنج ببلاد العرب. الدار العربية للنشر والتوزيع، ط1، 2009
- (6) حسن مكي محمد احمد. «استعراض كتاب» «The Heroic Age in Sinnar, by Jayspaulding» دراسات أفريقية.
- (7) الثقافة السنارية المعزي و المضمون إصداره رقم (5) جامعة أفريقيا العالمية، الخرطوم، (د. ت).
- (8) حسين مجدي صالح: سواكن ودورها في رحلة الحج إلى بلاد الحجاز حتى العصر الحديث. جامعة القاهرة: معهد البحوث والدراسات الأفريقية.
- (9) الخضر هارون - الثقافة العربية في السودان. واشنطن مركز الحوار العربي - 28 أغسطس / آب 2005م. www.freearabvoice.org/?page_id=644.
- (10) سلطنة الفونج الإسلامية في سنار. موقع منارة الاسلام. Islambeacon.com.
- (11) سيد أحمد العقيد: العلاقات السودانية الملكية عبر التاريخ. الطبعة الأولى 2006. الدار العربية للنشر والتوزيع.
- (12) الشيخ الامين محمد عوض الله. «إسهامات المؤرخ مكي شيبة في كتابة تاريخ مملكة الفونج الإسلامية» ورشة عمل: إسهامات علماء السودان في كتابة التاريخ. 25/أكتوبر 2013
- (13) الدولة العثمانية : مصر في العهد العثماني: المؤسسات التعليمية 4.
- (14) عابدة سيد احمد: «مشايخ العركيين في عهد سلطنة الفونج». موسوعة التوثيق الشامل.
- (15) عبد العزيز أمين عبد المجيد : التربية في السودان والأسس الاجتماعية والنفسية. مصر - القاهرة. المطبعة الأميرية 1949م.
- (16) عز الدين الأمين: قرية كترانج وأثرها العلمي في السودان (مجلة الدراسات السودانية)، مجلد 2، عدد مارس 1970م.
- (17) عمر سالم بابكور. «الدعوة في السودان وتأثيرها بالدعوة السلفية» دراسة تاريخية وثائقية «مجلة جامعة أم القرى»
- (18) يحي محمد إبراهيم: تاريخ التعليم الديني في السودان . بيروت ، 1987
- (19) يوسف فضل حسن: «الهجرات البشرية وأثرها في نشر الإسلام في السودان» التاريخ. موقع الدكتور محمد موسى الشريف. 2015/12/1م.